مفهوم الإصلاح في مغرب
ما قبل الحماية

عبد الكريم غلاب

في بداية هذا الحديث أقدّم ملحوظتين، الأولى : تهم موضوع البحث الذي هو مفهوم الإصلاح في مغرب ما قبل الحماية، والثانية : هو أن هذا الحديث لا يتناول الإصلاحات التي استضاءت بها أفكار نخبة من المثقفين والعلماء ورجال الفكر في العشرية الأولى من القرن الماضي. ذلك أن هذا الحديث يتعلق بمفهوم الإصلاح عند الدولة وليس عند الشعب.

الدافع لهذا الحديث، هو أننا على أبواب مائة سنة ستمر على عهد الحماية. يعني، ستحل بنا قريبا الذكرى المئوية الأولى لعقد الحماية سنة 1912. وعقد الحماية يتناول في فصله الأول : الحماية أُنشئت لإنجاز إصلاحات إدارية وتعليمية وعسكرية، وعدلية. معنى هذا في مفهوم الذي وقّع الحماية نيابة عن المغرب (مولاي عبد الحفيظ) وفي مفهوم الحكومة الفرنسية، أن هذه

الإصلاحات ليست موجودة في المغرب، وهو في حاجة إليها سواء منها العدلية أو الإدارية أو العسكرية أو الاقتصادية أو المالية، وطبعاً لم تذكرالإصلاحات السياسية نظراً لأن السياسة ستصبح بمقتضى معاهدة الحماية من اختصاص الدولة الفرنسية، وليس للمغرب دخل فيها، بحيث سيكون المغرب محجورا عليه أن يتحدث فيها، فأحرى أن يصلح نظامه السياسي. وإذا كان هناك إصلاح في الميدان السياسي فسيكون عن طريق الحماية برجالها وأجهزتها ونظمها. وسيكون المغرب موضوع هذه الإصلاحات بكل ساكنيه الذين سيصبحون بالطبع شعبين : فرنسي ومغربي.

هكذا نجد أن الحماية فرضت علينا نوعاً من الإصلاحات، والحقيقة أن المغرب كان في حاجة لهذه الإصلاحات باعتراف سلطان البلاد مولاي عبد الحفيظ. ولذلك فالمنطق السياسي في ذلك الزمان يجعل إنجازها من حق فرنسا، وهذا حق أخذته لنفسها وأعطته لها الدول التي تعاقدت واتفقت معها على فرض الحماية على المغرب. وهي الدول الغربية كما نعرف : انجلترا وإسبانيا، وألمانيا وإيطاليا ودول الشمال، والدول التي كانت تُناجز الاستعمارين الفرنسي والإنجليزي كلها اتفقت في مؤتمرين مهمّين على أن فرنسا هي التي ستقوم بهذه الإصلاحات: مؤتمر مدريد 1880 م ومؤتمر الجزيرة 1906. على كل حال هذا هو الدافع لتفكيرنا في موضوع ومفهوم الإصلاحات. وأُذكِّر بهذه المناسبة (مناسبة مرور مائة سنة على الحماية) أنه يجب أن تكون لنا وقفة فيها، بحيث نتذكر تاريخنا ما قبل الحماية وما بعدها والظروف السياسية الداخلية والدولية التي فرضت فيها، ونأخذ العبرة من فرضها ونقيس الخطوات التي خطوناها بما أنجز إبان الحماية وفيما بعدها حتى لا تتكرر المأساة.

أرجو أن تؤخذ هذه الدعوة بعين الاعتبار وأن تكون الذكرى المئوية لعقد الحماية ذكرى مهمة بالنسبة لنا كمثقفين وأكاديميين نفكر فيها وندرس الموضوع كما ينبغي أن يكون عليه الدرس..

ما هي هذه الإصلاحات وما هو مفهومها ؟ بالنسبة للإصلاحات عموماً في العالم بكامله، خلال القرنين الثامن عشر وبالأخص التاسع عشر وما بعدهما، كل هذه الفترة كانت حافلة بالتفكير في الإصلاحات وفي إنجازاتها. ولو أن التفكير في هذا النوع من الإصلاحات، وفيما هو أعقد منها بدأ مع النهضة الفكرية والتقنية والسياسية الأوروبية. أوروبا، التي ليست بعيدة عن المغرب، هذه القارة حبلت بالتفكير وبالعمل وبإنجاز الإصلاحات الفكرية والسياسية والاجتماعية. وهذا الجهاز الفكري والإصلاحي والعملي لم ينعكس على المغرب رغم القرب الذي أشرنا إليه. ماهي هذه الإصلاحات التي كثيراً ما ذكرنا أنها تتعلق بالفكر الأوروبي الذي تغير تغيراً ملموساً وظاهراً ؟ فانقلب من تفكير جزئي وبسيط وساذج وديني وخرافي إلى تفكير علمي ومنظم ومنجز يشمل العلماء كما يشمل النخبة الرأسمالية، وكثيراً من أفراد شعوب أوروبا. كان الإصلاح في الفكر، ومنه ظهرت علوم الفلسفة والنظريات الكلامية الكثيرة التي لا مجال للحديث عنها. ومن هذه الإصلاحات ما يتعلق بالتعليم الذي أصبح مشاعاً بين مختلف الشعوب، وهناك العدل، والتنظيم القضائي، وفوق كل هذا هناك النظم السياسية التي تغيرت من نظم رجعية يسود فيها الجور والحكم الفردي إلى نظم ديمقراطية نسبياً، تعتمد على حكم الشعب لنفسه بنفسه عن طريق الانتخاب لا عن طريق التعيين أو السيطرة المطلقة، أو استبداد طبقة الإقطاعيين ورجال المال وملّاك الأرض.

هناك إصلاحات تتعلق بالبنى التحتية كشقّ الطرق والبناءات العمرانية الكبرى. كإنشاء المدن الكبيرة التي أصبحت تاريخية بالفعل وتدل على عبقرية الإنسان، إنسان القرن الثامن عشر والتاسع عشر والقرن العشرين. وبعد ذلك هناك انتشار الطاقة الكهربائية، فالفحم الذي كان قبل شيوع الطاقات المتجددة أصبح متجاوزاً، وهناك الثورة الصناعية الكبرى التي أبعدت الإنسان عن العمل تقريباً وأصبح العمل الإنساني فكريا أكثر منه يدويا. هناك إذن ثورة صناعية كان من نتائجها الثورة الزراعية، من هنا انقلبت الأرض التي كانت تنتج من الغذاء ما يكفي، أو قد لا يكفي، إلى أرض منتجة بكثرة ومصدّرة ومستوردة، وأصبح الغذاء يتم بالرفاه، وليس فقط بقمع الجوع، وأصبحت الحياة مع هذا التقدم العلمي والصناعي متطورة. تطور مفهوم العناية بالصحة، وأصبح الطب يلعب دوراً كبيراً في تنمية العمل الإنساني، وهكذا أصبحت أوروبا من الناحية الفكرية، ومن الناحية الصناعية والعملية ومن ناحية البنى التحتية، أصبحت أوروبا جديدة بمدنها وطرقها وكهربائها ومواصلاتها، حتى أصبح الإنسان فيها يعيش في نوع من الرفاهية التي يطلب المزيد منها ويسابق الزمن نحو التطور.

هذا الشيء أو قريب منه كان يمكن أن يحدث في المغرب ! لم لا ؟ فالمغرب لم يكن متأخراً أكثر من أوروبا، كانت أوروبا متأخرة ومتخلّفة، لكنها تطوّرت وتقدّمت على مدى أربعة أو خمسة قرون، تطورت هذا التطور الهائل الذي نراه، وهو تطور ذاتي، اهتدت بالفكر أولا، وبالصناعة ثانياً، وبالعقل المتعلم المنتج وبالتجربة الناجحة فكانت الإصلاحات التي أشرنا إلى بعض عناوينها.

لنا مثلان مهمان جدّاً كان ينبغي أن نقتدي بهما، الأول روسيا التي لم تكن أكثر رفاهية ولا أكثر نمواً فكرياً ولا أكثر تقدماً صناعياً واقتصادياً من المغرب، لكن كانت لديها إرادة قوية. كان أحد القياصرة : بيتر العظيم، معاصراً لمولاي

إسماعيل، وقد زار أوروبا، وتطلع إلى ما فيها من تطور صناعي وتقني وعلمي فاقتبس كثيراً من هذه الأشياء ونقلها إلى بلاده وبدأت الحركة الإصلاحية. ليس معنى هذا أنه قلب روسياً إلى دولة أوروبية متقدّمة، ولكن على كل حال بدأت فيها الحركة، والنتيجة هي أننا رأينا روسيا تحارب ألمانيا وتتغلب عليها، بل إنها أصبحت تنافس الولايات المتحدة الأمريكية في الوصول إلى الأبراج الفلكية العالية، بإرسال الإنسان والحيوانات إلى الفضاء. وأصبحت تحتل مكانة كبرى سواء في التقنيات أو في العلم أو في الصناعة العسكرية أو في الحرب. لا نتكلم عن الفكر الآن. بالفعل تطور الفكر تطوراً مهما جداً، والدليل على ذلك بعض الإنتاجات الثقافية والأدبية والإبداعية التي جعلت الإبداع الروسي في مقدمة الإبداع الأدبي العالمي، قد لا يكون نفس التطور الذي عرفته أوروبا الغربية، ولكنه يوازيه وقد يتفوق عليه من الناحية التقنية والعلمية والمادية، وكذلك اختراع الذرة القتالية والسلمية. تطورت روسيا تطوراً عظيماً وشهدت لها بذلك معظم الدول العظمى، وكل دول المعسكر الشرقي.

المثال الثاني نأخذه من اليابان، التي كانت كذلك دولة متخلفة. فالإصلاحات التي استعارت نماذجها من أوروبا هي التي ساهمت في نهضتها فأصبحت الدولة التي حاربت الولايات المتحدة الأمريكية وقضت على أسطولها في بريل هاربل Preal harbol– في الحرب العالمية الثانية ونافستها في كل ميدان حتى استسلمت بالقنبلة الذرية. سبقتها الولايات المتحدة بإنتاج القنبلة الذرية وسبقتها بأخطر من هذا، وهو أنه كانت لها الجرءة لإلقاء قنبلتين ذريتين على مدينتين في اليابان فاستسلمت في الحرب، وتنازلت إلى مقامها «المتوسط» ولكنها في الميدان الصناعي والعلمي والإنتاجي والمالي ماتزال في القمّة.

لماذا لم يقتد المغرب بهذه الدول ؟ لم يقتد بأوروبا، ولا بروسيا ولا اقتدى باليابان ؟

هناك وهم عند كثيرين وهو أنه عندما أرسل مولاي الحسن مجموعة من الطلبة إلى أوروبا، كان اليابان في نفس الوقت يرسل مجموعة من العلماء إلى أوروبا. يمكن أن يكون هذا صحيحاً، ولكن هذا ليس هو بداية النهضة في اليابان. فاليابان بدأت نهضتها قبل ذلك بعشرات السنين عن طريق الذين كانوا يحكمونها، بشكل من أشكال الحكم، وتقدّمت تقدما ملموساً.

كان من الممكن أن يبدأ المغرب نهضته اقتداء بأوروبا ، لا أقول نفس النهضة الأوروبية، ولكن اقتداء بها، لماذا ؟ أولاً : لأن المغرب قريب من أوروبا. ولذلك من الغريب جدّاً أن هذا القرب المكاني لم ينعكس على القرب الفكري والزماني فيجعل من المغرب مثيلا لأوروبا في الإصلاحات التي نتحدث عنها. الحافز الثاني يتمثل في العلاقات التي كانت بينه وبين العديد من الدول الغربية. فالمغرب لم يكن منعزلا عن أوروبا كما يعتقد البعض، بل كانت هناك اتصالات اقتصادية، فالتجارة الأوروبية كان لها مجال واسع في المغرب، حتى إن المغرب اضطر في بعض فترات تاريخه الحديث، إلى تأميم التجارة حتى لا تطغى التجارة الفردية وتؤدي إلى تفقير المغرب أكثر مما فقّرته. كانت أوروبا تأخذ من المغرب اللحوم والجلود والأصواف والمزروعات، وكل ما يمكنها أخذه بأسعار طيّبة، وأحياناً كانت التجارة تغني المغرب، لولا السرقة والنهب والتخلف الذي يخيم على بعض المسؤولين عن القبائل المغربية آنذاك، لولا هذا، لكان المغرب من الناحية المالية والاقتصادية على الأقل في حالة جيّدة. كانت

هناك اتصالات تجارية قوية، والاتصالات التجارية كان يمكن أن تخلق اتصالات فكرية واقتصادية وعملية، وفي مقدمتها إصلاح البنيات التحتية، كالطرق لإنقاذ جهات المغرب من العزلة ومن الثورات والتمرد وسرقة أموال الشعب من واردات الضرائب التي كان الولاة -والكبار منهم بصفة خاصة- هم المكلفين بتحصيلها. ويمكن أن يكون هناك تبادل تجاري وبناء المدارس وتنظيمها أو تنظيم القضاء. هناك كذلك العلاقات العسكرية، فالمغرب حرر كثيراً من المناطق التي كان يحتلها الأجانب في الفترة ما بين المولى إسماعيل إلى المولى الحسن.

حرر مولاي إسماعيل أربعة موانئ كبرى؛ أهمها طنجة من الاحتلال الإنجليزي واستعصت عليه سبتة مع الأسف. وحرر سيدي محمد بن عبد الله بعض الثغور، كالجديدة، وكذلك فعل السلاطين الآخرون، وكان التحرير نتيجة اتصال وتجاذب وصراع، كان هناك صراع ورد فعل وقتال. كان هناك أسرى، وكان من الممكن الاستفادة منهم، خاصة وأنه كان من بينهم متعلمون، وصناع وتجار ومزارعون. كان من الممكن الاستفادة منهم في تطوير المغرب، عوض تكليفهم بجرّ المدافع، وهي عملية كان من الممكن أن تقوم بها البهائم. فهؤلاء الأسرى كان من الممكن أن يقوموا بشيء أهم وأحسن، وهو الاستفادة منهم في ميدان العلم والتقنية والصناعة الخ، الا أن شيأ من ذلك لم يحصل.

هناك ظاهرة مهمة لابدّ أن نذكرها : الاتحاد العالمي الإسرائيليس الذي نشأ في أوروبا (مقره باريز). وقد جاء بالطبع من نهضة الصهيونية في صورتها الأولى، وأنشأت الجماعات الصهيونية الاتحاد الإسرائيلي. فبدأ هذا الاتحاد ينتشر في الأقطار التي يعرف أن الاستعمار وضع عينه عليها. وكان من عمل الاتحاد إنشاء المدارس للإسرائيليين وتعليمهم. أنشأ في المغرب عدّة مدارس

ابتداء من سنة 1862، كانت أولى مدارسه في تطوان، واستمرت تلك المدارس في مختلف أنحاء المغرب تعلم اليهود الإسرائيليين ببداغوجية حديثة وبطريقة حديثة، تعلمهم الرياضيات والعلوم واللغات، الخ... كان من الممكن، على الأقل، أن نعرف ما كان يفعل هؤلاء بطائفة من أبناء وطننا. بعض اليهود من المتخلفين كانوا يستنكرون هذا العمل على اليهود. ويعتبرون إنشاء هذه المدارس جزء من الخروج عن العقيدة اليهودية ويتنكرون لهذا، لكن هذه المدارس سارت في طريقها وكان من نتائجها الخطيرة أن الذين تعلموا فيها وأولادهم الذين لازالوا يتعلمون فيها إلى الآن، أصبحوا متعلمين بخلاف المغاربة الذين لم يتعلموا شيئاً من هذه العلوم. وكانوا النواة الأولى التي اعتمد عليها الاستعمار حينما جاءت الإدارة الفرنسية إلى المغرب، فكان هؤلاء اليهود من السباقين إلى خدمة الاستعمار أولا، وكان الاستعمار يعمل على تشغيلهم في الإدارات كمترجمين وكتاب، ومساعدين الخ... لأنهم يمارسون العمل بالفرنسية، ولأن بعضهم كان ينقم علىالمغرب والمسلمين لأنهم يحسبون أن اليهود طائفة دونية، ولذلك يجب أن يخدموا الاستعمار، ولو لغير صالح المغرب انتقاما من المسلمين، ولأن العمل مع المستعمر يرفع من مكانتهم المعنوية والمادية، ويحميهم من عدوان الدولة المغربية ومن الشعب المسلم، كما يزعمون. والنتيجة أن هؤلاء من مدرسين وإداريين كانوا في خدمة الاستعمار. وخدموا فرنسا قبل الحماية وبعدها. بحيث كان منهم جواسيس ومخبرون الخ.

وبجانب هذا كله فقد كانوا النواة الأولى لنشر الصهيونية بين اليهود في المغرب والتي انتهت حملة لتهجير اليهود من المغرب وإفقاره من طاقاتهم وإنتاجاتهم. كان المغرب كذلك يُعلّم كثيراً من اليهود قبل الاستقلال وبعده، كانوا يتعلمون على

حساب المغرب في فرنسا وكانوا يذهبون زُرافات ووحداناً من باريز إلى إسرائيل مباشرة كأطر حيث كانوا يُستخدمون ضدّ العرب وضدّ المغرب بطبيعة الحال.

هذه النادرة لم يستفد منها المسؤولون ليقتدوا بها، فيعلّمون المغاربة مثلما يتعلم اليهود. على كل حال هذه الأشياء لم تنفع مطلقاً في تحفيز الدولة المغربية للقيام بإصلاحات. لماذا ؟ سنعرف ذلك فيما بعد. ماذا صنع المغاربة بالحكم في بلادهم ؟ ألم يتجهوا إلى معرفة ما يحتاج إليه بلدهم ؟ وكانت الحياة فيه مضطربة، تعشش فيها الفوضى والعبث كما كانت في حالة يرثى لها. كان عندنا ملوك كبار ومهمون جدّاً، ماذا قاموا به من إصلاح ؟

لنأخذ مثلاً مولاي إسماعيل، الذي كان حاكما كبيراً وذكياً، وكانت عينه مفتوحة على المغرب جميعه، وقد قام بأعمال جيدة ومهمة. الإصلاح الأول الذي قام به هو تنظيم الجيش بفكرة استوحاها من السعديين، وربما استوحاها من الأتراك، أو ربّما كانت من عبقريته. نظم الجيش وأراد أن يجعل منه جيشاً محترفاً، لا جيشاً متطوعاً، ذلك لأن المغرب كان يعتمد على المتطوعين. والتطوع له مرجعية إسلامية، فقد كان التطوع للجهاد ولحماية الوطن ولأداء ضريبة الدم، لكي تحمي الدولة أبناءها وقبائلها. هذا التطوع يأتي من القبائل الكبرى والصغرى، وكان يؤدي إلى فوضى في الحكم وفوضى في الحرب. فمثلا كان السلطان يذهب للحرب بعدد ضخم -المؤرخون يتحدثون أحياناً عن 50 ألفاً من المتطوعين والمجندين للحرب- وفي آخر المطاف يجد نفسه بأربعة آلاف أو ثلاثة آلاف من المتطوعين ! أحياناً ينتصر بها، وأحياناً أخرى ينهزم. ولكن، وهو ذاهب إلى الحَرْكَة، مثلاً من مراكش إلى سوس أو من مراكش إلى فاس أو من الرباط إلى كذا، كانت الطريق كلها مجالا لجمع

المجندين بالقوة أو المتطوعين، منهم من يذهب إلى الحرب لأنها أرحم من البطالة، أو رغبة في الدفاع عن البلاد، وعن السلطان، ومنهم من يقفل راجعاً إلى أهله.

وجد المولى إسماعيل أن الدولة في حاجة إلى جيش منظم ومحترف، والقبائل آنذاك كان من الصعب عليها أن تمد الدولة بشباب من أبنائها للجيش، ليصبحوا جنوداً إلى الأبد. فجاء المولى إسماعيل بفكرة أخذها من المنصور الذهبي وهي أن يعتمد على العبيد، وكان سهلاً أن يشتري العبيد بمائة ريال أو أقل. جمع عدداً كبيراً من العبيد الذين كانوا يأتون بأطفالهم وعائلاتهم، فأصبح هؤلاء جيشاً نظامياً يخوض الحروب المثيرة.

أن تنتقل الدولة من جيش تطوعي إلى جيش محترف ومنظم، يقوم بالحرب وحماية الدولة وسلطتها -ولو لم يحارب-، هذا إصلاح مهم يرجع الفضل فيه إلى المولى إسماعيل. وكانت للجيش فائدة مالية واقتصادية. فقد أصبح من مهامه جبي الضرائب والزكوات. ولم يعد يعتمد على رؤساء القبائل وعلى القواد الذين كانوا ينهبون نصف الزكوات وينهبون أموال الناس. فاعتمد على العبيد الذين قاموا بعملهم على أحسن ما يرام. فكان نتيجة ذلك أنه كلما كثر مال الزكاة والضرائب، كانت الدولة تنفق منه على أولائك العبيد من أكل وغذاء وأجور مغرية وتنظيم وتدريب، الشيء الذي شجعهم على البقاء في ميدانهم.

إلا أن هذا الإصلاح المهم أصبح كارثة على المغرب فيما بعد.

فبعد وفاة المولى إسماعيل قامت فوضى عارمة دامت ثلاثين سنة، قام فيها العبيد بتحطيم الدولة،والسيطرة على أبناء المولى إسماعيل وتولية من يرغبون

في توليته ثم عزله حتى إنهم ولّوا وعزلوا أحدهم سبع مرات. فدولة المولى إسماعيل مزّقها العبيد الذين جاء بهم من كل أنحاء المغرب. وكانت هناك مشكلة خطيرة وهي أنه كان يستعبد الأحرار الذين كان لونهم كافياً ليخضعوا للعبودية أيضا. وقد قام العلماء ضد هذا الاستعباد فخاض المولى إسماعيل معركة ضدهم وانتهى الأمر بقتل بعضهم كالعالم الكبير حمدون جسوس. وهكذا مر العلماء بفترة صعبة وخطيرة جدّاً بسبب موضوع العبيد. وكانت صرامة المولى إسماعيل مع المتمردين والمتطلعين للعرش، حتى من أبنائه، باعثاً على استقرار الدولة وسلامتها من فوضى الفتنة.

قام المولى إسماعيل بهذا الإصلاح، نظم الدولة، وهذا شيء مهم حيث كان من الصعب جدا تنظيم المغرب دون عقلية تنظيمية جديدة. خاصة وقد كان فيما مضى يُعتمد على شيوخ القبائل والقواد الكبار والإقطاعيين في هذا التنظيم. وهكذا أنهى المولى إسماعيل عهد الفوضى إلى حين، وأصبح المغرب مستقرا حتى إن بعض المؤرخين قالوا إنه يمكن للمرأة والرجل والشيخ أن يتنقلوا من وجدة إلى مراكش دون أن يسألهم أحد من أنتم أو إلى أين تسيرون؟ حصل هذا بفضل سيادة الأمن في المغرب. كما قام المولى إسماعيل بإصلاح آخر وهو تحريره لعدة موانئ مغربية محتلة في مقدّمتها طنجة والعرائش وأصيلا والمهدية كما سبق القول. وهذا أمر مهم لأن الأجانب أصبحوا يحتلون موانئ المغرب من شماله على البحر الأبيض إلى غربه على المحيط الأطلسي حتى الجنوب. ولكن مع الأسف لم يستطع أن يحرر سبتة مع أنه حاصرها حصاراً شديداً. فالاحتلال الأجنبي لموانئ المغرب كان لعدة أسباب من أهمها الانتقام لأسلحة الأندلس، وتأمين الملاحة الأوروبية من القرصنة، وبداية النزعة التوسعية في البحار والمحيطات، ثم تلبية للفكر الاستعماري بكل تطلعاته في ملامحه الأولى.

نذكر مثلاً آخرَ من المصلحين هو سيدي محمد بن عبد الله، ذاك الرجل المتميز. فبعد موت المولى إسماعيل تطلع الكثير من أبنائه إلى الملك حتى أصبحوا كلهم ملوكاً، وقد كان لديه 500 ولد و500 بنت، كلهم أصبحوا ملوكاً، وجرى على الوضع قول ابن الخطيب : «وصاح فوق كل غصن ديك»، فعمت الفوضى المغرب زهاء ثلاثين سنة، حتى إن أحدهم وُلّي وعُزِل خمس مرات ! لماذا كل ذلك ؟ كان أولاده كثر، ولذلك لم تكن بينهم رابطة إنسانية أو أبوية فبالأحرى سياسية. لم تتطور هذه الرابطة الإنسانية لكي تؤدي إلى ولاية العهد. إذن هو لم يفكر في ولاية العهد واعتبر أن أبناءه كلهم لا يصلحون لولاية عهده، وانتقل إلى رحمة الله تاركاً هذه الفوضى التي دامت ثلاثين سنة، أدخلت المغرب في عهد الظلام حتى جاء حفيده سيدي محمد بن عبد الله وحاول أن يصلح. الملاحظ أن للعبيد (جيش البخاري) أثر كبير في تأريث العداوة بين الأبناء وتغذية طموح كل واحد منهم، ماداموا يبتزونه ويستغلون ثروته حتى إذا يئسوا من ثروته انتقلوا إلى غيره، وبعملهم هذا أحدثوا الفوضى في الدولة وزرعوا الفتنة بين الناس.

كان سيدي محمد بن عبد الله رجلا مصلحاً وقد استفاد من أعمال جدّه بدون شك، وحاول أن يؤسّس المملكة على أسس جديدة، وكبت نوعاً ما طغيان العبيد، وبدأ يعيد لبعض القبائل الكبرى مكانتها وكيانها. فالمولى إسماعيل لما قام بإصلاحاته جرد القبائل من السلاح ومن الخيل. وكان له الحق في ذلك، لأن كل من كان له سلاح وفرس يصبح ثائراً، لهذا بدل من أن يحارب كلّاً منهم على حدة جمعهم وسلبهم السلاح والخيل، وفي نفس الوقت قضى على ثروة مغربية تتمثل في الفروسية والشهامة التي كانت عند هذه القبائل تدافع بها عن الوطن وتعلي من مكانة القبيلة.

فهذا ما حاول سيدي محمد بن عبد الله أن يعيده إلى بعض القبائل الكبيرة وهي محاولة مهمة.

والمحاولة الإصلاحية الثانية هي : أنه بنى مدينة الصويرة على الطراز الأوروبي، فهي مدينة جميلة وجديدة كان الغرض منها سياسياً فقط لا عمرانياً، وجعل من الصخرة القريبة منها جزيرة للأسرى والسجناء، وهذا يُعتبر أمراً خطيراً من الناحية الإنسانية وحقوق البشر. ثم طلب منه القناصل أن يقيموا بهذه المدينة. وبذلك جمع القناصل الذين كانوا يسكنون في فوضى، في كل أنحاء المغرب حيث كان الاتصال بالمغاربة والدسائس والجاسوسية، عمليات سهلة وجزءاً من العمل القنصلي.

ثم حاول أن يجمع التجارة في ميناء آسفي بدلا من فوضى الموانئ التي كان المغاربة يستغلونها ليبيعوا سلعهم بأثمان باهظة، فكانت الدولة تضيع لحساب التجار والمتاجرين المغاربة والأجانب، لذا حاول أن يجعل من الدولة المسيطرة على التجارة الخارجية، وكذلك قام بما قام به جده من قبله من السيطرة على الدولة، وكان رجلا طيبا رغم الأخطاء التي ارتكبها. كما أن إصلاحه يتصل كذلك بالجانب الفكري حيث إنه وضع حدا للزوايا وبدأ يُدخِل بعض الأفكار التقدمية الوهابية والإصلاحية الدينية. وهو الذي أسهر إحدى بناته لأحد الأمراء في السعودية. أدخل إذن أفكار الوهابية إلى المغرب وكان يقول فيما يُروى عنه أنه «مالكي المذهب، حنفي العقيدة»، فقد كان متطوراً في أفكاره، وكان ضدّ الجمود الفكري وضدّ اعتماد العلماء في الدراسة على الملخصات في كتب الفقه والنحو، وكان يدعوهم للرجوع إلى الأصول والمدونات، دعا مثلا إلى دراسة «رسالة ابن أبي زيد القيرواني» بدلا من كتاب «مختصر سيدي خليل»، ولكن حينما توفي رجع العلماء إلى «سيدي خليل» وتركوا «رسالة ابن أبي

زيد القيرواني». المهم أن سيدي محمد بن عبد الله كان رجلا مصلحاً إلا أن إصلاحاته هذه كانت في تلك الحدود التي ذكرناها ولم يستطع أن يستفيد من الإصلاحات الأوروبية التي تحدّثنا عنها في بداية هذا الحديث. لم يستطع الاستفادة من الفرص التي أتيحت له عن طريق الأسرى، أو التجارة أو الاتصالات الدبلوماسية، أو عن طريق ما حرر من ثغور. وقد كان له كما في عهد جدّه مولاي إسماعيل عدد من القراء، يقدمون له كثيراً من التقارير عن الحياة السياسة والاجتماعية في البلاد التي يقومون بمهمتهم السفارية فيها.

جاء بعده مولاي عبد الرحمن -لأن المولى سليمان كان رجلا فقيهاً وطيباً ولا يقدر على شيء، وقد انهزم المغرب في عهده انهزامات متكررة، فقد كان كلما سمع بثائر أو متمرد في قبيلة مّا يذهب ليحاربه دون استعداد للحرب، ولم يكن له عبيد، فبقايا عبيد عهد المولى إسماعيل خانه أبناؤهم فانهزم هزيمة منكرة، وقد عمل خيراً حين انسحب من الملك وتركه لابن أخيه المولى عبد الرحمان- الذي كان طيباً ومصلحاً، وقام بمجهودات للإصلاح لكنها جاءت متأخرة، فالضغط الاستعماري حاصره وحاصر ابنه محمد من بعده وأصبح المغرب معرضاً لخطرين : التخلف الداخلي من جهة والضغط الاستعماري من جهة أخرى، ولذلك لم يكن يرجى منهما أي إصلاح مهم ومنقذ للمغرب.

في عهد سيدي عبد الرحمن وابنه محمد بن عبد الرحمن بدأ الضغط الخارجي باحتلال الجزائر. وكانت الغلطة الكبيرة في إيسلي التي حارب فيها سيدي محمد بن عبد الرحمن من أجل الجزائر مساعدة للمسلمين ولأميرهم عبد القادر الذي كان يجاهد ضد الاحتلال بدون استعداد وبجيش غير منظم، فانهزم المغرب في إيسلي وبدأ انحداره نحو الهاوية، فلا ملوك أقوياء مثل مولاي إسماعيل ومحمد بن عبد الله، ولا الشعب قادر أن يحمي نفسه من الطغيان

الأجنبي الذي بدأ يحاصره من كل جهة. ثم جاءت بعد احتلال الجزائر وهزيمة إيسلي الهزيمة الكبرى والخطيرة وهي احتلال تطوان، قام المجاهدون بمحاولة لتحرير سبتة لكن الاسبان استغلوا الوضع المنهار للمغرب فكان احتلال تطوان هو الرد القوي على محاولة تحرير سبتة.

ودخل المغرب في معركة الاستدانة لفداء تطوان من بنوك دول أجنبية كانت في مقدمتها انجلترا، هي السمسار الكبير فيها، فهي التي أوحت بإقراض سيدي محمد بن عبد الرحمن أموالا طائلة لفداء تطوان، أعطاها للإسبان وأصبح مديناً للبنوك الإنجليزية والإسبانية، وبذلك أصبح المغرب بلا حول ولا قوة.

إصلاحات المولى الحسن محدودة جداً : سيطر على النظام في المغرب وكان عرشه على فرسه كما قيل، ونشر الأمن في البلاد وبعث بعثة من الطلاب إلى الخارج، ولا ندري هل أصاب في هذا أم أخطأ، فبدل إنشاء مدارس، أرسل ستة طلبة إلى الخارج، ولما عادوا لم يجدوا مكانهم في المغرب ولا انسجموا مع الوضعية الاجتماعية في بلادهم. فالمحاولة كانت عبثاً في عبث ! ثم حاول جاهدا أن يصدّ عن المغرب مطامع الدول الأجنبية، خاصة فرنسا وإنجلترا وإسبانيا. وكان موقفه صارما مع سفراء الدول الذين كانوا يحاولون أن يفرضوا نفوذ دولهم. وعلى كل فالمولى الحسن كان آخر إضاءة في هذا العهد الذي بدأ بقوة مولاي إسماعيل ثم أخذ في النزول إلى أن وصل إلى 1912.

من المسؤول عن عدم تمكن المغرب من تحقيق الإصلاحات التي تحدّثنا عنها والتي كانت في متناوله ؟ هل المسؤول هو الشعب أم الدولة ؟ أظن أن الجواب واضح، فالشعب ليست له مسؤولية في هذا الموضوع، والدولة هي المسؤولة لأن

بيدها الآليات والحكم والسلطة والمال والجيش والدين، لأن السلطة عندنا كانت دينية ودنيوية، ولذلك فالشعب ليست له مسؤولية. مع ذلك نجد من يقول إن الشعب لم تكن له أهلية لأن تنظم فيه إصلاحات من النوع الذي تحدّثنا عنه في البداية، ويستدلون على ذلك بأن الفرنسيين حينما احتلوا منطقة الشاوية أرادوا أن يضعوا التلغراف في أحدى المناطق، فواجهتهم بعض القبائل وحاربتهم، وكانت المعركة خاسرة لأن الفرنسيين احتلوا هاته المنطقة بسبب أن سكان القبائل وقفوا ضدّ هذا الإصلاح، وحاربوا التقنيين الذين جاءوا لوضع هذا التلغراف.

هناك دليل آخر، وهو أنه في عهد مّا، أظن أنه عهد المولى عبد العزيز، تقرر مدّ السكة الحديدية بين مدينتي الدار البيضاء والرباط في منطقة صغيرة جداً، وبدأ الخبراء يضعون علامات على الطريق فحاربتهم القبائل وطالبت بانسحابهم وإلا فالقتال. وطبعاً انسحبوا ولم تُمد السكة الحديدية بعد ذلك ! هذه حقاً مسؤولية الشعب. لكن الدولة كانت قادرة على تهدئتهم وقد كانت قادرة على تهدئة الثوار والمتمردين في أعالي الجبال، فقد كانت قادرة على أن تمد الطرق في السهول والأراضي المنخفضة. إذن هؤلاء الحكام لم يكن لهم رأي في الإصلاح مطلقاً.

مثل آخر أذكره : المولى عبد العزيز قام بإصلاح في السلك الدبلوماسي في طنجة فأنشأ ما يسمى بدار النيابة، وهي مؤسسة دبلوماسية لها بعض الاتصالات مع الخارج، إلا أنها كانت مسلوبة الإرادة ليست لها سلطة ولا عمل لأن الوضعية السياسية الداخلية والخارجية كانت قد بلغت عهد الانهيار. وكان أحد أعضاء دار النيابة، وهو محمد بن سعيد، كتب تقريراً مهماً جدا عن الإصلاحات التي يجب أن تدخل للمغرب عن طريق دار النيابة، ولكن هذه الإصلاحات ظلت سجينة هذا التقرير.

هناك جانب كبير من المسؤولية يتحملها شيوخ القبائل والولاة الكبار الذين كانوا يخونون الدولة لتحقيق نفوذهم وزيادة ثروتهم والسيطرة على المحكومين، وكان الشعب والدولة من ضحايا الصراع بينهم لكسب مزيد من الأرض ومزيد من السلطة ومزيد من المال المغتصب من المواطنين. مسؤولية هؤلاء تخفف من مسؤولية الدولة لأنهم كانوا يشغلونها بالحروب عن التفكير في الأعمال الحضارية السلمية.

إذن فالجواب عن السؤال الكبير : من المسؤول ؟ أعتقد أنه واضح وأن الدولة كانت المسؤولة دون أن نغض الطرف عن مسؤولية الآخرين. هناك مسؤوليات شعر بها بيتر العظيم في روسيا ونقل جزءا مما أمكنه من الحضارة الأوروبية إلى روسيا. هناك مسؤولية تحملتها العائلات التي حكمت اليابان، فنقلت بعض ما كان عند أوروبا إلى اليابان. وقد كان ملوك المغرب قادرين على السيطرة عليه رغم صعوبة ذلك كما قلنا، ولكنهم لم يستطيعوا أن ينقلوا الحضارة بما فيها من ثقافة وتقنيات واقتصاد وصناعة إلى وطنهم. المسؤولية واضحة جدا. فقد كانت للمغرب إمكانيات هائلة لتطوير نفسه ولكنه لم يتطور. وجاءت الحماية التي وضعت حدا لكل التطلعات وكل الأفكار ولكل هذا التاريخ، وفكرت في وضع إصلاحات بالمغرب ومن بينها إنشاء شعب جديد من الفرنسيين بالمغرب وإبقاء الشعب المغربي كما هو. لكن كان هناك وعي شعبي لا بأس به، طالب بالإصلاحات الحقيقية في برنامج الإصلاحات المغربية، التي كانت لصالح المغرب، ولم تقم فرنسا بأي إصلاح منها. كانت هناك فقط الإصلاحات التي تقوم بها الحماية لصالح الشعب الفرنسي بالمغرب. وجاءت بعد ذلك المطالبة بالاستقلال واستقل المغرب وبدأ يمارس إصلاحاته بيده لا بيد الحماية. وهنا نقول إن الإصلاحات التي وعدت بها الحماية ضاعفها المغرب بإصلاحات أفيد وأحسن بعد الاستقلال.